روضة الحكايات!!

(١٠)

لا تُشغلوا قلبي بِحوائجِ الدنيا!!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مجالس الذكريات!!

في بيت (أبي النور) وفي يوم الإثنين ، اجتمع الأصدقاءُ القدامىٰ...و راحوا يتحدثون عن (أيام زمان)... فالذكريات الجميلة تجعل الناس يعيشون الآمالَ والأحلامَ... . ، وبعد تَناوُلِ بعضِ أنواعِ الفواكه الصيفية ، دخل (نورس) وهمسَ في أذن والدِه قائلاً : لقد حان موعد الندوة التلفزيونية ، ولقد حضّرنا الكراسي وأخرجنا التلفاز إلىٰ الحديقة... ، فالجو هادىءٌ وجميل...

فقال (أبو النور) لأصدقائه : ما رأيكم في أن نجلس في أحضانِ الطبيعةِ .

حيث الهواء الطّلق ، والنسيمُ العليلُ ، والأشجار الخضراء.. والورودُ والأزهار الفوّاحة ؟

وافق الجميعُ علىٰ الفكرة ، ثم قاموا.. وانطلقوا إلىٰ الحديقةِ المحيطةِ بالبيت ، وبعد الجلوس ، سأل (أبو فارس) : وما هو محورُ الندوة اليوم ؟

فأجاب (أبو النور) : إنها برنامجي المفضّل ، ولم أترك ذاك البرنامج منذ ما يزيد عن أربع سنوات!

ثم قال (أبو النور) : وفي كل مرة يستضيف البرنامج ثلّة من أصحاب الفكر.. أو الفنّ أو الإعلام أو ما إلىٰ هنالك ، ويكون له محورٌ واحد ، بحيث يأخذ كل واحد من المتحاورين زاويةً من زوايا الموضوع ، فيسلّط الأضواء عليها ، ليحدّثنا كل واحدٍ منهم عمّا قرأ أو كتب أو بحث فيما له علاقة بذلك الموضوع..

وقد كانت الندّوةُ الماضية حول (مشاكلِ البيئة.. والحلول المقترحة)..

أما عنوانُ حَلْقةِ اليوم فهو : (القانون الدولي العام).....

فماذا استفدنا من الندوة ؟!

وماهي إلا دقائق حتىٰ ظهرت شارةُ البرنامجِ علىٰ شاشةِ التلفاز... وانتبه الجميع لما يدورُ في الندوة .

ثم قدّمَ مديرُ الندوة الأساتذة الضيوفَ ، وتحدّث قليلاً عن نشاطاتهم . وخاصةً ما يتعلّق بتصنيفاتهم وأبحاثهم ، ثم توجّه بالسؤال الأول إلىٰ أكبر الضيوف سنّاً وأخذ يحاوره وهكذا حتىٰ انتهت الندوة ، فنظر إلىٰ الضيوف وقال لهم : بقي عندنا بعض المشاركات الهاتفية وكذلك عبر الأقمار الصناعية و...

وبعد الإجابات السريعة عن ذلك ، أعلن مديرُ الندوةِ عن انتهاءِ الوقت... ووضعَ عنواناً للندوة

القـادمـة وهـو : صـراع الحضـارات أم حـوار الحضارات ؟!

وقدّم أولاد (أبي النور) الشرابَ المثلّجَ.. ومعه بعضُ أنواع الحلويات .

... وأثناء تناول الضيوفِ ذلك ، قال (أبو ممتاز) : عندي بعضُ الملاحظات علىٰ ندوةِ اليوم .

فقـال (أبـو النـور) : هـات مـا عنـدك مـن ملاحظات ، فأنتَ كما عوّدتنا دائماً ناقدٌ من الطراز الأول!

فقال (أبو ممتاز) : من أهم الانتقادات ـ حسب رأيي ـ أن المتحاورين أتعبوا أنفسهم.. وأجهدوا عقولهم.. وهم يستعرضون القوانينَ الأجنبيةَ... ونحو ذلك لكن الأمرَ الذي جعلني أنزعج حقاً ، أن الأستاذَ المحاورَ (سلمان) ذكر أسماء كثيرة

لعلماءَ من الغرب ، أبدعوا في مجالاتِ القانونِ الدوليِّ العام ، علىٰ حين أهملَ هو وأصدقاؤه كلَّ ما له علاقةٌ بعلماءِ العرب والمسلمين ، وكأن المسألة تدلّ علىٰ عدم وجود علماء مسلمين مختّصين في هذا المجال!!

فتساءل (أبو النور) : ومَنْ مِنَ العرب والمسلمين برز وأبدع في هذه المجالات ؟!

... . وهكذا طالَ وقتُ الجلسة... حتىٰ قارب الليلُ أن ينتصف... فقام الجميع واتجهوا إلىٰ مساكنهم..... وقُبيلَ الوداع قال (أبو ممتاز) : تمنيت لو تحدث المتحاورون عن الإمام (محمد بن الحسن الشيباني) وهو من روّاد القانونِ الدولي العام .

وقد مضىٰ علىٰ زمانه مئاتُ القرون...

* * *

مع نابغة الفقه الإسلامي

ولما سمع (هاني) باسم الإمام الفقيه ، قرّر أن يكتب ترجمةً وافيةً عنه ، ويقدّمها محاضرةً في المعهد القرآني...

وهذا ما حدث ، حيث اعتكفَ الشابُّ أياماً في المكتبةِ العامةِ ، فنقل ورتّب وهذّب ، وحذف ، حتىٰ كان هذا الملخّص المفيد ، والذي شاء له الله تعالىٰ أن يُقدّم محاضرةً مسائيةً أعجبتِ الحضورَ واستمتعوا بها... :

... في العراق وُلد (الإمام) ، وذلك سنة (١٣٢هـ) . وأصلُ أسرته من مدينة (حرستا) قُرب دمشق الشام .

وكـــان للبيئـــة العلميـــة التـــي ســـادت الكوفة...وللأحوال المادية الحسنة لوالده أثرٌ كبيرٌ في تحصيله للعلوم.. وتفرّغِهِ للدراسةِ والبحث..

ومِن أول من أخذ عنهم العلمَ الإمامُ أبو حنيفة رحمه الله ، وبعد أربع سنوات من المداومة علىٰ دروس الإمام وعلىٰ ملازمتِه والأخذِ عنه . شاء الله أن ينتقل (أبو حنيفة) إلىٰ عالم الآخرة ، فلزم خليفته قاضي القضاة (أبا يوسف) ، واستفاد من مجالسه وسمع منه ، وروىٰ عنه...

وفي سنة (١٧٩) رحل إلىٰ المدينةِ المنورة ، وذلك بهدفِ لقاءِ الإمامِ (مالك) صاحبِ كتاب (الموطأ) ، وهناك أكرمه مالك أيّما إكرامٍ ، وبقي ملازماً له أكثرَ من ثلاثِ سنوات ، فأخذ عنه الحديثَ حتىٰ صار أهمَّ رواةِ (الموطأ)!!

ولما عاد إلىٰ بغداد عَكَفَ علىٰ تصنيفِ ما سمع

وما قرأ وما وعىٰ ، حتىٰ إنه انشغل بالعلم انشغالاً لا مثيلَ له ، فنسي أمورَ الدنيا كلَّها ، حتىٰ قيل عن أحواله أمور غريبة (...كان إذا سَهِرَ الليالي ، وانحلّت له المشكلات ، يقول : أين أبناء الملوك من هذه اللّذات ؟) .

(.. وكان رحمه الله لا ينامُ الليلَ ، وكان يضع عنده دفاترَه ، وكان إذا مَلَّ من نوعٍ ينظر في نوعٍ آخر ، وكان يضع عنده كأسَ الماء ، ويزيل نومه بالماء ، وكان يقول : إن النومَ من الحرارة)!!

(وكان ينصح التلميذَ في أول سلوكه دربَ العلم ، فيقول : من أراد أن يترك علمَنا هذا ساعةً ، فليتركْه الساعة ، فإن صناعتَنا من المهدِ إلىٰ اللحدِ)!!

* * *

مكانة مرموقة

حَصَّلَ الإمامُ محمد الشيباني علوماً كثيرة ، واستفاد من العلماء الذين تتلْمذَ علىٰ أيديهم وعلىٰ رأسهم (الإمام أبو حنيفة) و(الإمام أبو يوسف) و(الإمام مالك) و(الأوزاعي) و(ابن جُريج المكي) و(زفر بن الهذيل) و(سفيان الثوري) وغيرهم.. وقد تتلمذ علىٰ يديه نخبة من العلماء ، منهم :

(الإمام الشافعي) و(أبو عُبيد القاسم بن سلام).. وكثيرون...

وتبدو مكانةُ الإمامِ المرموقةُ من خلال سلوك حياته ، ومن خلال مصنّفاتِه ، فكتابُه الفقهي الموسوعي (الجامع الكبير) يُعَدُّ من أضخم

ما كتب في الفقه ، لذلك قام العلماء والمحقّقون بشرحه ، حتىٰ بلغت شروحاته (٣٥) كتاباً!!

وكذلك كتابه (الجامع الصغير) والذي جمع فيه (١٥٣٢) مسألة فقهية ، غالبيتها مروية عن الإمامين (أبي حنيفة وأبي يوسف) رحمهم الله جميعاً..

إضافة إلىٰ كتبه الأخرىٰ ، مثل(الزيادات) و(موطأ الإمام محمد) و(الحجّة علىٰ أهل المدينة) و(الآثار) و(الكسب) و(النوادر) و(الرّقيات)...

لكنَّ أهمَّ ما قدّمه الإمام محمد للعالم ينحصر في مجالين اثنين هما :

أـ القانون الدولي العام : ويظهر ذلك في كتابيه (السِّير الكبير) و(السّير الصغير) ، حيث تحدّث فيهما عن كلِّ ما له علاقةٌ بأحكامِ الجهاد ، وعن أحكامِ الأمانِ ، وعن أحكامِ الموادَعة ،

والغنائم.. والفدية ، وما إلىٰ هنالك .

ب ـ الاقتصاد الإسلامي : ويُعَدُّ الإمام محمد من أوائلِ من أفردوا هذا الموضوعَ في تصنيفٍ مستقلٍّ ، بحيث بيّن أهمية الاقتصاد في إدارةِ حركةِ الحياة ، ومدىٰ تأثيره علىٰ أمور كثيرة ، ولذلك روي عنه أنه قال ـ عندما طلبوا منه أن يكتب في الزهد ـ قال : حسبكم كتاب البيوع!!

فقد اعتبر الحديثَ عن الحلال والحرام هو الزهد ذاته... ، وكان كتابه المختصر تحت عنوان (الكسب) أو(الاكتساب في الرزق المستطاب)...

* * *

من مَعينِ أخلاقه

تابع هاني حكايتَه عن الإمام محمد أحدِ روّاد القانون الدولي العام ، قائلاً :

وعلىٰ الرغم من مكانتِه العلميةِ المرموقَةِ ، فقد كان مع العوام.. ومع طلاب العلم غايةً في التواضع ، إلىٰ درجة أنه كان ينفق علىٰ كثيرٍ من طلبة العلم ، ويطلب منهم الدعاء له!!

ولذلك أثنىٰ العلماءُ عليه ، ونصحَ بعضُهم بعضاً أن يأخذوا من علومه ، من ذلك قول الإمام الشافعي : ما رأيتُ قطّ رجلاً سميناً أعقلَ منه...

وقول الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام : ما رأيتُ أعلمَ بكتابِ الله من محمد بن الحسن..

وقول الإمام الطحاوي ، حاكياً عن بعض تلامذة الإمام : كان حزبُه ـ حصّته ـ في كل يومٍ وليلة ثلث القرآن الكريم!!

* * *

إنه داء الحسد

تابع (هاني) الحكاية ، قائلاً :

وكما هي العادة ، في كل زمان ومكان ، فقد خرجَ في عصره من يَحسُدُه ، ويحاول تعكيرَ صفوِه ، لكنه كان كثيراً ما يردّد قول الشاعر :

محسَّـدون ، وشـرّ النـاس منـزلـةً
من عاش في الناس يوماً غيرَ محسودِ

حتىٰ كانت سنة (١٨٩هـ) سار(هارون الرشيد) ومعه إمامان جليلان : (الكسائي ، ومحمد الشيباني ـ وهما صاحبا الإمام أبي حنيفة) ، وشاء الله تعالىٰ أن يموتا قرب مدينة الريّ ، ويُدفنا فيها... .

فرحم الله الإمام محمد بن الحسن الشيباني رحمةً واسعة ، والحمد لله رب العالمين .